سلسلة حياة

الرسول وأهل بيته (ع)

الإمام محمد الباقر (ع)



في الطريقِ الطويلِ المضنيَ نحو الكوفةِ، سارتِ السبايا يجرنَ خطاهنَّ جراً، مثقلاتٍ بالحُزنِ، قد حطمتهنَّ الفاجعةُ، وأنهكهنَّ ثقلُ القيودِ. لقد خلَّفنَ ورائهنَّ أجسادَ آبائهنَّ وأزواجهنَّ وإخوانهنَّ وأبناءِهنَّ متناثرةً على رمالِ كربلاءِ الحارقةِ.

لم يبقَ معهنَّ إلاَّ رجلاً واحداً. رجلٌ نجى بمعجزةٍ، وبمشيئةٍ إلهيةٍ من المجزرةِ. كان يسيرُ متعثراً من المرضِ والإنهاكِ في المقدمةِ.

وفي المؤخرةِ أمسكَ طفلٌ لا يتعدى الرابعةَ من عمرهِ بيدِ أمّهِ فاطمةَ بنت الحسن بقوةٍ. كان قد رأى كُلَّ شيءٍ رأى المشهدَ بأكملهِ فانحفرَ في ذاكرتهِ ووجدانه إلى الأبد.

رأى أعمامَهُ يُقتلونَ، رأى جدَّهُ ويُفْصَلُ رأسهِ عن جسدهِ ويُحْمَلُ على رُمحٍ - رأى أبيهِ العاجزَ عن الحركةِ بسببِ المرضِ، ينهضُ ويقعُ، ينهضُ ويقعُ محاولاً بيأس أن يفتدي أباهُ من القتلِ. رأى الجنودَ يحرقونَ الخيامَ. رأى المتاعَ يُنهب، رأى الأوباشَ يسلبونَ النساءَ الأساورَ، رأى كُلَّ شيءٍ.

رأى المذبحة.. ورأى القتلة.

كان الطريقُ طويلاً وموحشاً... كيوم عاشوراء. استسلمَ فيه الجميعُ للحزن. إلا عمّةَ أبيه زينبُ بنت علي بن أبي طالب(ع). فقد كفَفَتْ دموعَها ولو إلى حين ونهضتْ بعبء المسؤولية الكبيرة. تجري بين السبايا رغم ثِقَلِ السلاسل. تواسي هذه وتشجّعُ تلك. تطلبُ منهنَّ الاستعانةَ بالله. والثقة بقدرته. تنتقلُ بين الجميع. ولكن عينَها كانت دوماً على أبيه المريض ولا تكادُ تفارقُهُ لحظة.

ورغمَ ذُلِّ الأسر. وشماتة الأعداء. وهول ما حدث. ورغم فقدانها لأبنائها وأخيها وأهلَ بيتها. استطاعتْ أن تمسكَ بزمام المبادرة. فكانت الراعيةَ والحاميةَ للجميع. كان ابن أخيها ـ أباهُ ـ هو كُلُّ ما تبقّى لها في هذهِ الدُّنيا. فجهدتْ أن تُبعِدَ الأعداءَ عَنْهُ. وأن لا ينالَهُ أذى. وقد نجحتْ في ذلك.

رآها في الكوفةِ وهي تُعنِّفُ النّاسَ وتأنّبهم لتخاذُلَهم عن نصرةِ أخيها الشهيدِ. وتركهم إيّاهُ لمصيرهِ يواجهُ جيوشَ الأعداءِ على قلّةِ أصحابه. رأى الرجالَ تفرُّ من أمامِها وتتوارى خجلاً.

رآها في مجلس عبيدِ الله ابن زيادٍ تواجهُ القتلةَ وتُبشّرُهم بسوءِ العاقبة.

ورآها في الشامِ. تفضحُ الطاغيةَ يزيدُ. وتألّبُ عليه أهلَ بيته.

ورآها عندَ عودتِها إلى مدينةِ جدِّها رسولِ الله (ص) تلازمُ أباهُ تواسيهِ بمصابِهِ. وتخفِّفُ عنهُ وطأةَ ما حدثَ.



تعافى أبيه من مرضه. سليمَ الجسم. لكن كربلاءَ خلفتْ في روحهِ جروحاً وندوباً لن تلتئمَ أبداً.

كان ذلكَ الطفلُ ابن الرابعةَ الذي رأى كُلَّ ذلكَ هو محمدُ بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب(عليهم السلام) والمعروفُ بالباقرِ وكان قد ولد غرة رجب عام ٥٧ للهجرة.

في المدينةِ شاهدَ النّاسَ تبكي جدّهُ الحسين(ع). وشاهدَ آثارَ المصيبةِ على كُلِّ وجهٍ وفي كلِّ بيتٍ من بيوتها. قد كانَ لجدّهِ منزلةً لا تُدانيها منزلةً في كُلِّ قَلْبٍ من قلوبِ أهلها.

كانَ التذمّرُ من الحكمِ الأمويّ قد انتشرَ في أزقتها وأحيائها لم ترق لَهُم سيرة يزيدٍ. وفجورهُ الظاهرَ ولم يرضوا بقتل الحسين(ع) فأعلنوا خَلْعَهُم لبيعتهِ. وطردوا بني أميّةَ من المدينةِ.

لم يتأخر يزيدٌ في إرسالِ جيشهِ لقمعِ الثورةِ. واختارَ لقيادةِ الجيشِ رجلاً خلواً من الضميرِ لا يَرْدَعهُ عن تدنيس المحرّمَاتِ شيءٌ هو «مسلمُ ابن عقبةَ».

دخلَ الجيشُ المدينةَ قامَ بقتلِ الآلافِ من أهلها. ونهبَ البيوتَ وهدمَها. وارتكبَ من الجرائمِ والموبقاتِ ما يندى له الجبين. واستبيحَتْ مدينةُ رسولِ اللهِ(ص) ثلاثةَ أيامٍ بلياليها.

في خِضَمِّ تلكَ الأحداثِ. لم يجدْ بعضُ النّاسِ المذعورينَ ما

يَقيهِم من الموتِ سوى الاحتماءِ **بالإمام زين العابدين (ع)** فلجأ إلى بيتِهِ أكثرَ من **أربعمائةٍ من الأطفال والنساءِ والشيوخِ**.

وقالَتْ امرأةٌ بعدَ نهايةِ الأحداثِ أنَّهُ كان أحَنَّ عليهِم من أمِّهِم وأبيهِم.



كانَتْ ثورةُ المدينةِ تهدِّدُ بقتْلِ الأمويين لما ارتكبوه. فهربَ الرجالُ إلى يزيد في الشام. وقد ضاقَتْ بهم السبلُ، وسُدَّتْ بوجههم منافذُ النجاة. فلم يَجِدُوا سوى الإمام يأتمنونَهُ على نسائهم وأطفالهم. وهُمْ من قتلَ أخوتَه وأبيه، وأثقلوهُ بالقيود، وسلبوا متاعَ نساءِ آلِ بيتِه يومَ كربلاء.

قَبِلَ الإمامُ الأمانةَ، وقامَ بما يقتضيه الظرف. فرعى أطفالَهُم ونساءَهُم وشيوخَهُم أفضلَ رعايةٍ. شاهدَ محمدٌ برَّ أبيهِ بأعدائه، وقيامه بنفسِه بالسؤالِ عن احتياجاتهم. فجاءَ إليه وسألَهُ مستوضحاً:

ـ «لماذا تؤويهم يا أبي .. ألم يقتلوا جدّي .. ألم يقتلوا عمومتي. ألم يقتادونا أسرى ؟!!».

فيردُ أبيهِ الطاهرُ القلب:

ـ «هؤلاءِ لا ذنبَ لهم يا بُنَيّ .. إنَّهم نسوةٌ وشيوخٌ وأطفالٌ، وعلينا أن نُحْسِنَ إليهم».

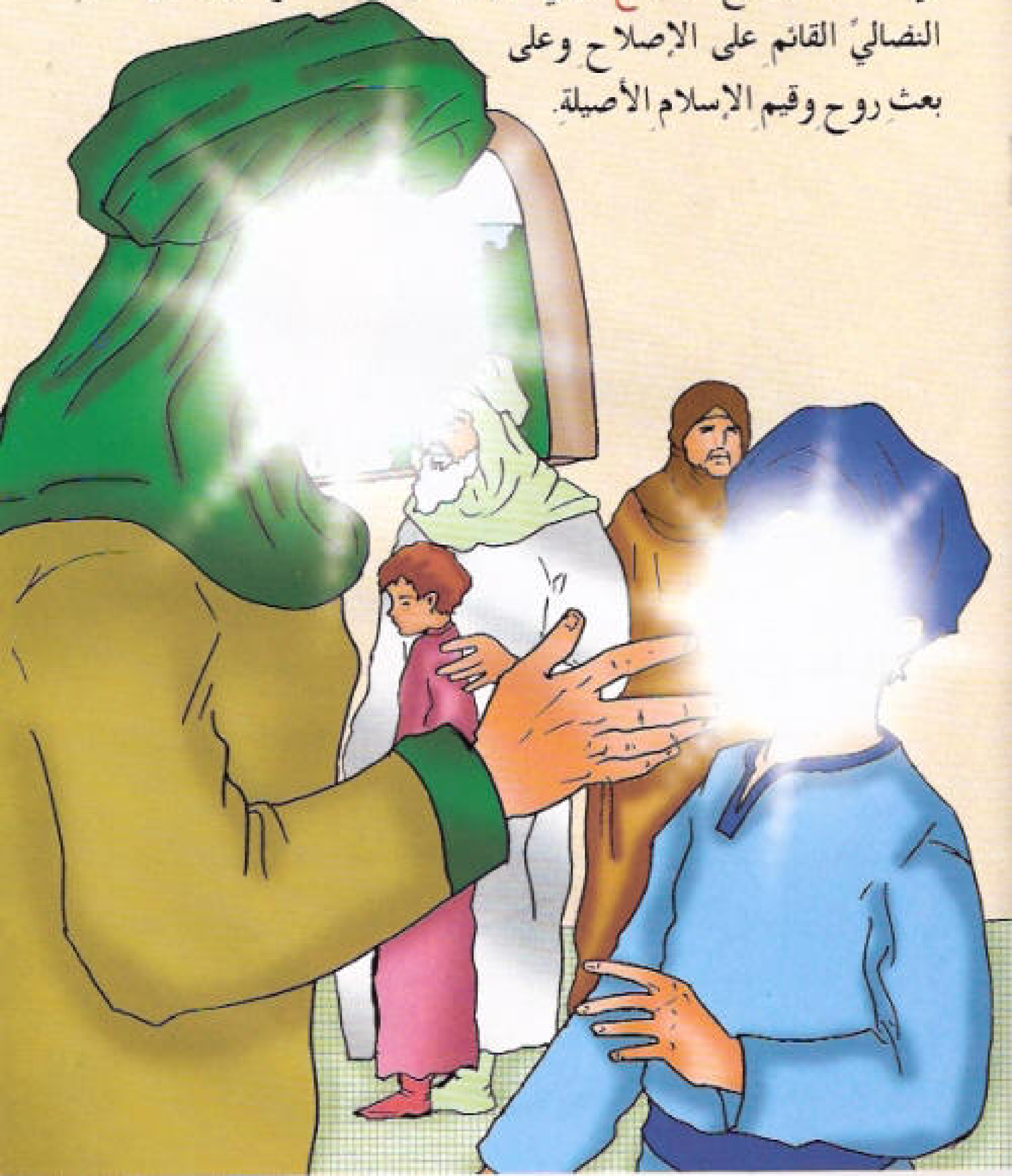
عندما سمعَ كلامَ أبيه، لم يَعُدْ في حاجةٍ لإخبارِهِ عمَّا يقولُهُ بعضُ فتيةِ بني هاشم عن إيوائه لعوائلَ قتلَةِ جدِّه.

استوحى من أبيه كيفَ يتعالى المرءُ على جراحِهِ وعرفَ أن النبلَ والإحسانَ والصفحَ هي من أخلاقِ أبناءِ النبيِّ(ص) وحينما استولى الأمويونَ على المدينة. كان البيتُ الوحيدُ الذي لم تمتد إليه

أيديهم العابثة، هو بيت الإمامُ زينُ العابدين (ع).

وكان لجميل عمله أثرهُ في إبعاد الأذى عنهُ في تلك الأحداث الدامية.

في المدينة ترعرع الباقر (ع) وفي ظلِّ إمامة أبيه نشأ وتشرَّب من خطِّه النضاليِّ القائم على الإصلاح وعلى بعث روح وقيم الإسلام الأصيلة.



ShiaKids.Net

شرعَ الإمامُ زينُ العابدين (ع) على إعداد ابنه لمرحلة جديدةٍ من النضال. وأشارَ إليه بالاتجاه إلى علوم آل البيت الذي خصّهم به الله من دون النّاس جميعاً. فأقبلَ الفتى على العلم بنهم شديدٍ. فاشتهرَ على حداثة سنّه بعلمه الكبير.

لقيهُ الصحابيُّ الجليلُ جابرٌ بن عبد الله الأنصاريّ وهو شيخٌ كبيرٌ فقال له:

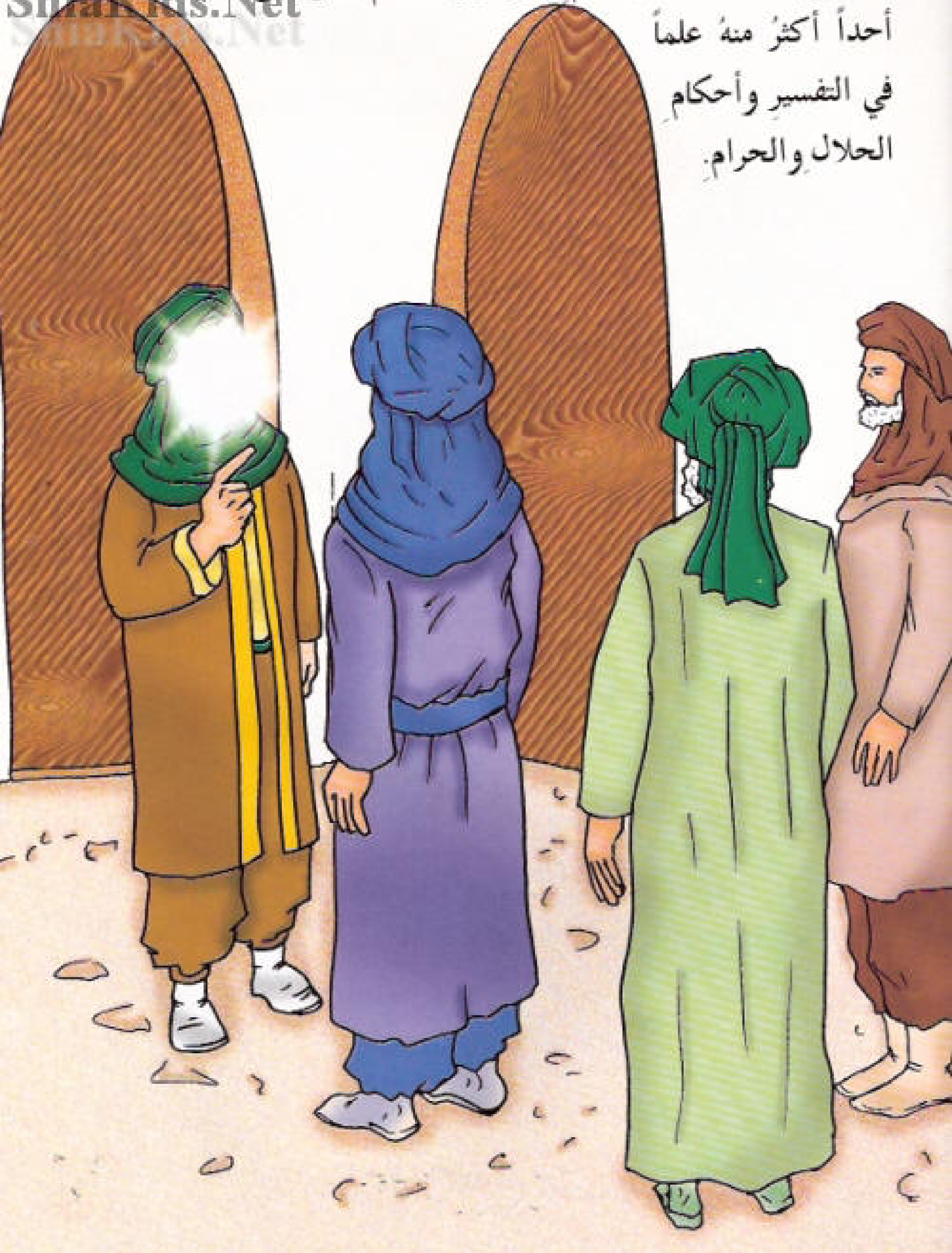
ـ «رسولُ الله يَبلغكَ السلام».

فاستغربَ الغلامُ منْ كلامِ الشيخ الجليلِ فحدّثهُ الشيخُ عنْ حديث رسول الله (ص) إليه:

ـ «يا جابرُ توشكُ أن تعيشَ حتى تلقى ولداً لي من الحسين يقالُ له محمد يبقرُ العلمَ بقراً. فإذا لقيتهُ فأبلغهُ منّي السلام».

وفي حياةِ أبيه اتّخذَ لهُ مجلساً في المسجد. فأتى إليه طلابُ العلم من كلّ مكانٍ وبعدَ وفاته تقلّدَ الرياسةَ والإمامةَ. فأصبحَ سيّدَ علماءِ المدينة. واقتبسَ من بقيَ من الصحابة ووجوهِ التابعين والفقهاءِ من علمه الكثير. كان الفقهاءُ والعلماءُ يجلسون بين يديه كما يجلسُ الصبيُّ بين يديّ معلّمه. واشتهرَ في المدينة وفي سائرِ العالم الإسلاميّ بعمله الجمّ.

أصبحَ محجةَ طُلاّبِ العلمِ، حتّى قِيلَ أنّهُ لم يكن على الأرضِ
أحداً أكثرُ منهُ علماً
في التفسيرِ وأحكامِ
الحلالِ والحرامِ.



واصلَ الإمامُ خطّهُ الجهاديَ القائمَ على العلمِ والفضيلة، وكان خلالَها حكامُ بني أميّةَ مشغولينَ عنه بمنازعاتِهم على الحكمِ، والانغماسِ في الشهواتِ حتّى تولّى «عمر بن عبد العزيز» الحكمَ. وقد اتّصفَ عهدُهُ ببعضِ الصفاتِ الحسنةِ وبعضُ محاولاتِ الإصلاحِ. وسلكَ سلوكاً مغايراً لسلوكِ بني أميّةَ. أتى إليهِ الإمامُ الباقرُ(ع) فقرّبَهُ وأدناهُ، وسألَهُ عن حاجتِهِ. فقالَ الإمامُ:

ـ «رُدَّ لي حقّي يا عمر».

ـ «وما هو؟».

قالَ الإمامُ الباقرُ(ع):

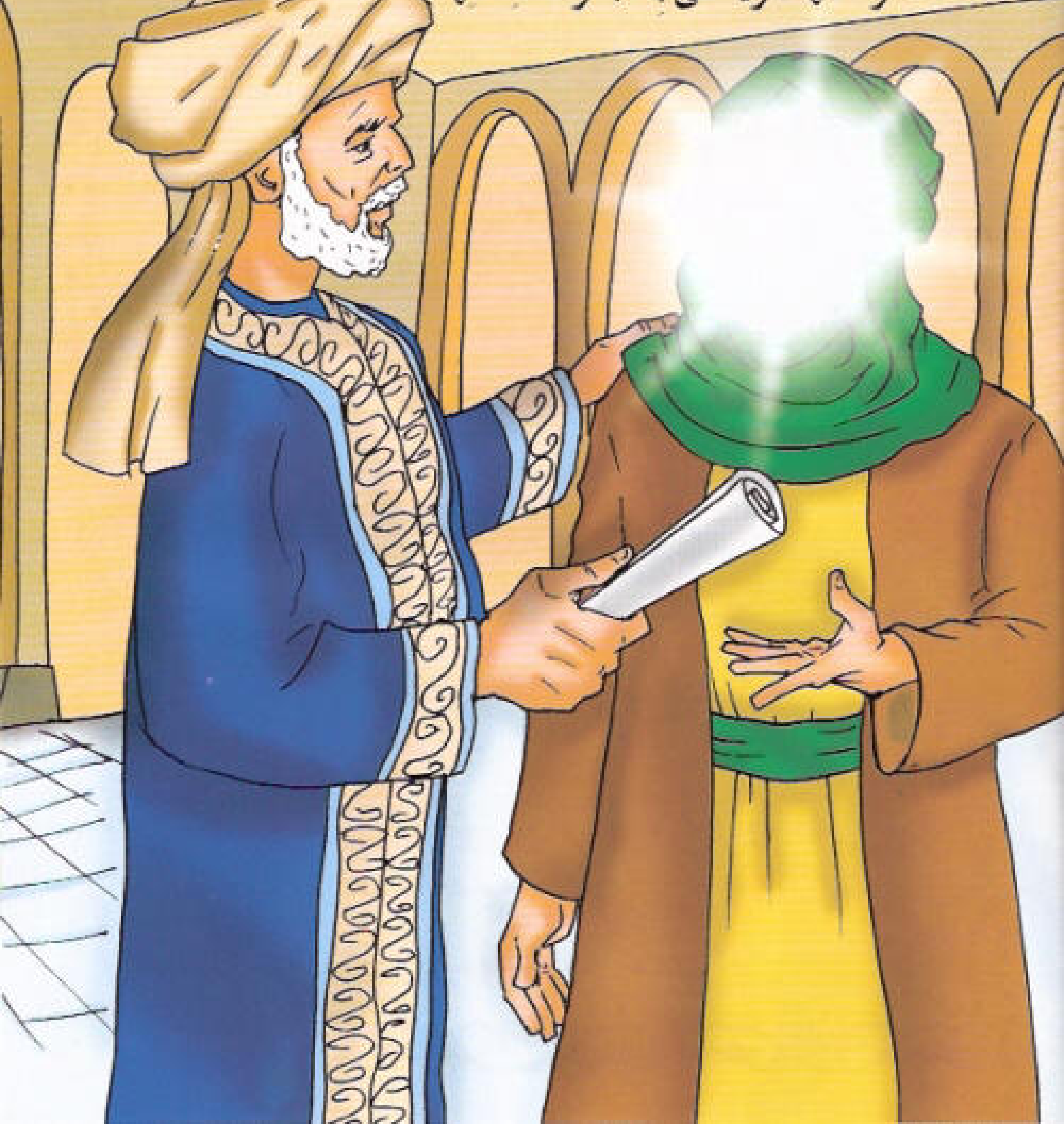
ـ «فدك».

فردّها إليهِ، وأعلنَ أمامَ الجميعِ أن (فدك) هي مِلْكٌ لفاطمةَ ولبنيها من بعدِها ولا يجوزُ أن تبقى في يدِ مغتصبِها. وقد أثارَ موقفُ عمر هذا رِضا واستحسانَ عامةِ النّاسِ وخاصّتِهم. لكن أيامَ الصفوِ التي نعِمَ بها الإمامُ الباقرُ(ع) في عهدِ (عمر) لم تدم طويلاً. فسياسةُ (عمر) قد أثارَت مخاوفَ بني أميّةَ، وأحسّوا بالخطرِ من جرّائها. فسعوا للتخلّصِ منهُ، وقد تمَّ لَهُم ذلكَ. فماتَ عمر مسموماً بعد سنتين ونصف قضاها في الحكمِ.

وجاءَ بعدَهُ (هشام بن عبد الملك) إلى الحكمِ. وكان متكبراً

ومتجبراً، جاء ويحملُ معَهُ كُلَّ أحقادِ بني أميّة على البيتِ النّبويِّ الشريف. كان ينظرُ بريبةٍ إلى منهجِ الإمام(ع) الإصلاحي، وممّا زادَ من مخاوفِهِ تلكَ الأخبارُ المقلقَةُ التي تُحمَلُ لَهُ من المدينة.

فالإمام(ع) يحظى بمكانةٍ عظيمة، فهو سيِّدُ المدينةِ بلا منازع، يبجّلُهُ العلماءُ والفقهاءُ، ويحظى بحُبِّ وطاعةِ أهلِها.



شعرَ هشامٌ بالخوف، فاستدعى الإمامَ(ع) وابنَه جعفرَ إلى الشام، وألقى بهما في السجن. لكنَّ المحبةَ التي لقياها في السجن دفعته إلى إخراجهما، وإعادتهما إلى المدينة بعدَ أن أدركَ خطورة بقائهما في الشام على حكمه.

اتّصفَ حُكْمُ هشام بالظلم والقسوة وبتعطّشه إلى الدم. فأثارتْ أعمالُهُ تذمّرَ النّاس، وقامَ (زيد بن علي) بثورته في الكوفة في محاولةٍ للتخلُّص من الاستبداد الأمويّ. لكن الثورة فشلَتْ وقُتلَ زيدٌ وصُلبَ في أحد أحيائها.

كانَ زيدٌ تلميذُ أخيه الأكبر الإمام الباقر(ع). وقد استمدَّ من أفكاره الداعية إلى التغير المبادئ التي قامتْ عليها ثورته. وتركَ استشهادُهُ وطريقة قتله البشعة جُرحاً عميقاً في وجْدانه.

بعدَ ثورةِ زيد لم يهدأ بالُ هشام. لقد أقضتْ مخاوفهُ وهواجسهُ من الإمام(ع) مضجعهُ. ولم يطمئنْ إلى حكمه إلاَّ بالتخلُّص منهُ. فأرسلَ من يضعُ لهُ السُّمَّ. واستشهدَ الإمامُ الباقرُ(ع) يوم ٧ ذوالحجة سنة ١١٤هـ.

خرجَتْ المدينةُ باكيةً تشيّعُ ابنها وزعيمها البارَّ، ودُفنَ في مقبرة البقيع حيثُ دُفنَ آباؤهُ العظام.

فسلامٌ عليه يومَ ولدَ ويومَ ماتَ ويومَ يبعثُ حياً.

